العـــرائس

ديوان الشـــاعر البحرينى إبراهيم العريض

ماأكثر الشعر الذى يصدر عن جزيرة العرب فى هذا العصر ، وما أقل قيمته !. فى كل حين نسمع بشاعر جديد فيطير بنا الخيال إلى العصر الجاهلى وصدر الإسلام، حيث كانت الجزيرة مورد الشعر ومصدر الأدب ، وتتمثل لنا الكنوز الشعرية التى أهدتها جزيرتنا إلى العالم ، ويحملنا الظن على أن هذا الشاعر الجديد قد ورث عن أجداده الفحول ملكة الشعر تامة ، ومن هو أولى بهذه الوراثة منه ؟.. ثم نقرأ قصائده فتستك أسماعنا بغزل كاذب يشهد على صاحبه بالجهل فى فنون الغزل ، وحماس بارد يهوم قارؤه حين سماعه ، إلى وعظ وإرشاد لبنى قومه الأمجاد أشبه ما يكون بالخطب المنبرية ، بل هو خطب منبرية موزونة مقفاة !.

وبجانب هذا الشعر تقوم طائفة من الناس تدعى لنفسها العلم بالشعر والمعرفة بأساليبه ، وليس لها من العلم والمعرفة غير الاسم ، فتخلع الألقاب على الشعراء بلا حساب .. فهذا شاعر الجزيرة بلا مدافع ، وذلك الشاعر الوطنى بلا منازع ، وهذا شاعر الحب والجمال حيث لاحب ولا جمال ، وتحسب أنها رسمت الحدود وفصلت المناهج بهذه الأقوال الفارغة ، وأنها يسرت السبيل للقارىء فما عليه إلا أن يأخذ بما تقول فى شأن هذا الشاعر أو ذاك ثم يقرأ شعره فان لم يجد ماتقوله صحيحاً ، وهو مالا يجده دائما . فليتهم نفسه !..

ويبدو لك جهل هؤلاء النقاد ـ كما يصفون أنفسهم ـ حين يعمد أحدهم إلى التخصيص دون التعميم ، أو يحاول أن يشير إلى قاعدة بلاغية وقلما يشير إليها دون بتر أو قلب ـ وإذا بها حجة عليه لاله فيما يدعيه ، وإذا بكلامه ضرب من الهذيان بل هو شر البلية الذى يضحك ...

فإذا نبغ فى هذا الجو الأدبى ـ الموبوء ـ شاعر كأمثال إبراهيم العريض فلا جرم إذا استقبلناه بكل تقدير وتكريم ملاك الشعر الصحيح ، صدق العاطفة ، وجمال التعبير ، ودقة الأداء ، وبغير هذه المقومات لايستقيم الشعر .. وقد اجتمعت كلها ـ أو جلها ـ فى شعر الأســـتاذ العريض ، وبخاصة فى غنائياته التى سنتحدث عنها الآن ..

والأستاذ صاحب العرائس ، كما ينم عليه شعره ، إنسان رقيق العاطفة لطيف الشعور ، ناعم الإحساس ، والمرأة عنده مدار كل جمال فى الوجود والفن :

هذا الوجود إطار لا كفاء له ... وغاية الفن فيه رسم حواء

وما يضطرب فى الحياة من معان جميلة ، وأهداف جليلة ، فلها.

لها الشباب الذى تشقى برقيته ... ما كابد القلب من صدو وإغراء

لها الجمال الذى تعنو لعزته ... فيما تشاهد من ظل ومن ماء

لها الوداد الذى تبقى أشعته ... تنير خطوك فى طوفان أهواء

لا تكذب النفس فى مجد حلمت به

فلست تحسن إلا قول أهواها

ولماذا ؟ لأن المأساة والمهزلة فى حياتنا الدنيا قضية واحدة كما يقول فى مقدمة بعض قصصه :

هى أسطورة حواء جرت فى أثر حيه

والحياة بغير حواء ظلمة لاتطاق :

هل تكون الحياة لولاك إلا ... ظلمة لاأطيق منها خروجا

وفى فراديس الجنان لاأمل للشاعر إلا الفوز بالمرأة على انفراد :

وما تؤمل بالفردوس منفرداً ... إلا رجاؤك أن تحظى بلقياها

حتى الطبيعة لو تمثلت بشراً سوياً لكانت امرأة نواحة :

إن الطبيعة لو تمثل شخصها ... لبدت فتاة فى ثياب حداد

تبكى على وجه يحول وزهرة ... تذوى وحسن مشرف لنفاد

وهكذا تجد المرأة هى كل شىء عند هذا الشاعر الطريف، فلا غرو أن يهدى عرائسه إلى حواء ، مادامت لها تلك المنزلة وما دامت هى الملهمة :

أفهل تذكرين حواء لما ... قلت لى والهوى يرف علينا

أى حسن رأيته فى حتى ... حال نوراً يشع من ناظرينا

حبذا لو جلوت لى فى إطار ... أثر الحب فى نفوس كلينا

تخذيها منى أحاسيس شتى ... نبضت بالحياة لوناً فلونا

وغزل الشاعر ـ فى الأغلب الأعم ـ شريف عفيف يتسم بطراوة المعانى وطلاوة الألفاظ ، ويعرب عن روح شاعرة أصدق إعراب ، وحسبك أن تقرأ له هذه الأبيات فقد اشتملت على أكثر خصائصه :

تعالى ، فإن الليل يبسط ظله لكي يتملى ناشىء الزهر حله
وإن فؤادى برعم فى يد الصبا سأعدم نشراً منك إن لم أطله
وثمت سر كامن فيه كالشذا ولم أتنشق منه إلا أقله
طوى باكيا .. كالزهر أول صفحة
من العمر .. حتى يضحك العمر كله

وشاعرنا مغرم بإرضاء معشوقته والتحبب إليها فتارة نراه يفنى شخصيته فى سبيلها كما فى قوله :

فلا يزدهى قلبي بشيء مؤمل إذا لم يصادف فى فؤادك شانا

وتارة يعرض عليها صوراً منتزعة من جمال الطبيعة تحكى حبه لها :

إن حبي إليك كالبحر لما ترشق الشمس وجهه فيموجا
لا . بل الشمس عند ما تتجلى
من وراء السحاب تطلى المروجا
لا . بل الغيث عند ما يتوشى
منبت الأرض من نداه نسيجا
لا . بل الروض عند ما يتلقى
قطرات الندى فيزكو أريجا
صور يا أميم شتى ولكن ألفت من هواك معنى بهيجا

وأحياناً يعمد إلى تصوير حالته النفسية لها ، لربما عطفت ورقت :

يا مى قد أصبحت من طول ما أعيانى الشعر ، عليل الفؤاد
لا أملك اليوم سوى دمعة أفصح عن حبي بها فى انفراد
أهذه حالة أهل الهوى فاطبه . أم أنا دون العباد؟

ونحن نطمئن الشاعر بأن أهل الهوى - والله أعلم - يشاركونه هذه الأحاسيس . . .

وبعد : فنعتقد أن ماذكرناه من شعره كاف للدلالة على شاعريته ومذهبه المختار .. وللشاعر براعة فائقة على التشخيص والتصوير ، وأوضح ماتكون هذه الخاصية فى قصيدته الطريفة «عروس البحر» إذ صادف هذه العروس ، وكان كما يقول :

أنا فى نشوة أحدث نفسى بما أراه
وأرى ملء ناظرى حياة هى الحياه
تحت ظل يكاد يشتعل الزهر فى مداه
وسكون يمده بلبل بالذى شداه
وإذا بى أحس خلقى حراكا على المياه

ثم يصف الشاعر هذه العروس التى فاجأته على الشاطىء ويصور ماشاء وشاء له خياله الخصيب ، وهذه القصيدة من أجمل ماقيل فى معناها ...

وأخيراً ... فللأستاذ فضيلة تذكر فى محافظته على أساليب اللغة وقواعدها ، وعلى سموه بأغراض الشعر ومقاصده ، فلم نقع له إلا على هفوات قليلة نادرة ، — وكفى المرء نبلا أن تعد معايبه —

ومن تلك الهفوات قوله :

شغفت بالحسن لاتنفك تطلبه
عيناك حتى ولو فى كأس صهباء

وحتى العاطفة تأتى غاية للنقص أو الزيادة وقد اجتمعا فى قول الشاعر :

قهرناكم حتى الكماة فأنتم
تهابونا حتى بنينا الأصاغرا

وليس كأس الصهباء « أسمج » شىء يظهر فيه الحسن حتى يستدل به على قدرته فى استشفاف الجمال فيه ، على أن التعبير بحتى ولو فيه كلام قد يطول .. ومثل قوله .

هم حسبوني شاعراً ، أين لى
مثلك أنفاس تهز الجماد

فلو جاء بأنغام مكان أنفاس لكان أولى ، إذ الأنفاس التى تهز الجماد هى أنفاس البراكين . .

ونحو قوله .

لقد كان أولى أن نتمتع بعضنا
بأنظار بعض فى جنون صبانا

ونسعد بعضاً فى اشتراك سرورنا
ونسعد بعضاً فى اشتراك أسانا

وما بالنا نشقى كذا بودادنا ...

وقوله : وكانت هى الأخرى كثير وجومها ...

وهذا الصنف من التراكيب العامية ، والمعانى المبتذلة لايستساغ من شاعر كالأستاذ العريض يعرف قدر الشعر ويرى أنه :

لو تجلت قدرة الخلاق فى لفظة صاغ لها الشاعر معنى
ولكن . . . جل من لايسهو . . .

حيا الله الأستاذ ، وأكثر من أمثاله بين شعرائنا ؟

أحمد العروانى